نشأة البحث البلاغي

للدكتور عبد الحميد سند الجندي

المدرس بقسم اللغة العربية

(١)

الدور التاريخي العلمي

في صدر الدولة العباسية برز في المجتمع الاسلامي تغيرات جوهرية باعدت بينه وبين ماضيه بسبب الاختلاط الذي نجم عن اتساع الامبراطورية الاسلامية، وقد سقط النفوذ العربي السياسي وتحطمت عصبية العرب ، وظهرت فكرة الشعوبية ، وخفت صوت القائلين بأفضلية العرب . وكان لذلك كله نتيجة حتمية لازمة هي أن تصبح اللغة العربية صناعة ، وأن تُكتسب بالتعلم ، وأن يكون درسها ودرس أدبها ذا قواعد وضوابط يُحتاج فيها الى التأليف والكتابة.

والى جانب ذلك كانت البيئة الثقافية الاسلامية تزخر بامتزاج علمي آخر اختلطت فيه ثمار العقول العربية بنتاج العقول الأجنبية . فقد التمس القوم آثار المدنيات المختلفة من يونانية ولاتينية وفارسية وهندية ، ونقلوا فنونا متنوعة من ذلك الى لغتهم ، وأقبلوا على دراستها وتمحيصها وتمثلها ... فكان لهذا كله أثره في الانشاء الأدبي وفي صناعة النقد .

وقد تسرب أثر هذه الحركة الفكرية سريعا الى الناحية الاعتقادية ، وساعد على ذلك تلاقي ديانات مختلفة ومذاهب متباينة ، فاشتعلت نار الجدل في أواخر القرن الثاني الهجري وتطاير شررها الى جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية . وكان أول ما أثير حوله هذا النقاش الحاد هو القرآن الكريم معجزة الاسلام الكبرى .

وقد حمى وطيس الجدل بين أئمة الأدب وأرباب المقالات من علماء الكلام فى بيان وجه اعجاز القرآن ، واختلفوا فى ذلك طرائق قددا وتضاربت آراؤهم كما هو مسطور فى آثارهم مثل « المواقف » لعضد الدين و « المقاصد » لسعد الدين التفتازانى .

وكان الرأى الآفن السقيم بين هذه الآراء رأى ابراهيم النَظّام أحد زعماء المعتزلة وصاحب المذهب الخبيث الذى ينسب اليه ، وهو « مذهب الصَّرفة » . وفحوى هذا المذهب أن القرآن ليس معجزا بفصاحته وبلاغته وأن العرب كانوا قادرين على أن يأتوا بمثله ، ولكن الله صرفهم عن ذلك تصديقاً لرسوله حتى يؤدى رسالات ربه .

وقد انبرى للرد عليه جم غفير من جلة العلماء من بينهم الجاحظ والباقلانى وامام الحرمين والفخر الرازى وغيرهم ، وناضلوا نضالهم المحمود الذى خُلد لهم فى بطون الأسفار ، فكتبوا الفصول المتعة مبينين خطل هذا الرأى فى منطق قوى سليم لم يُبق زيادة لمستزيد .

كذلك قامت سوق نافقة للحجاج والمناظرة فى ذلك العصر بين أئمة اللغة والنحو من أنصار الشعر الجاهلى الذين كانوا يرون الخير كل الخير فى الحفاظ على أساليب العرب وأوضاعها الفنية ، وبين الأدباء والشعراء أنصار الشعر المحدث الذين لم يكونوا يحفلون بما درج عليه أسلافهم من العرب ، ورأوا أنهم فى حِلٍّ من كل قديم لا يشاكل الحضارة التى غُذوا بلبانها ورُبوا فى أحضانها . ولو أن القدر أتاح لهم أن يروا زخارف تلك المدنية ، وأن يستبدلوا الحواضر بالبوادى ، والقصور بالخيام ، والرياض الفاتنة بمنابت الشيح والقيصوم ، والأنهار الجارية بمساقط الغيث الذى يزور لِماماً ، وترف الحياة ولينها بشظفها ولأوائها — لو أن القدر أتاح لهم ذلك كله لكان لهم شأن فى أدبهم ومَهيْع فى أساليبهم غير هذا .

يضاف الى ذلك اللجب ما شجر من الخلاف بين أئمة الأدب وأساطينه فى بيان وجوه تحسين الكلام حتى يتوقل فى مدراج البلاغة . وقد تناقضت آراؤهم فى ذلك أيما تناقض ؛ ففريق مال الى رصين الكلام الجامع بين العذوبة والجزالة وسطوة العبارة ، وفريق أولع بالمنمق الموشى بألوان من البديع . ومظهر ذلك ما نراه فى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ حين حكم على تلك الأبيات المشهورة لكثير عزة بأنها مُونِقة خلابة فى لفظها ، فاذا أنت فتشتها لم تظفر منها بطائل ، وهى :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشُدَّت على حُدب المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح [1]

ثم ما نراه فى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، من استحسان لهذه الأبيات واتهام لذوق ابن قتيبة[2] ، ووافقه على نقده هذا أبو الفتح بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ فى كتاب « الخصائص » [3] ، والامام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ فى « أسرار البلاغة »[4] الذى حللها تحليلا دقيقا يدل على ذوق فنى رفيع مبينا مواطن الجمال فيها لفظا ومعنى .. الى غير ذلك من مختلف الآراء مما لا يتسع المقام لسرده الآن .

وكل ذلك لفت أنظار أئمة البلاغة الى أن يضعوا قوانين وضوابط يهرعون اليها عند الاختلاف ، وتكون دستورا للناظرين فى آداب العرب منثورها ومنظومها ، ونشأ من ذلك البحث فى علوم البيان أو علوم البلاغة .

---

(١) انظر مقدمة كتاب « الشعر والشعراء » .
(٢) انظر كتاب « الصناعتين » ص ٤٢ طبعة الاستانة .
(٣) انظر كتاب « الخصائص » ج ١ ص ٢٢٥ طبعة الهلال .
(٤) انظر « أسرار البلاغة » ص ١٦ طبعة دار المنار .

(٢)

وليس هناك من ريب فى أن عناصر أجنبية شتى كانت ذات أثر بالغ فى نشأة البحث البلاغى المنظم • ومن تلك العناصر ما هو يونانى ، وما هو فارسى ، وما هو سريانى ، وما هو هندى ، وما هو غير ذلك • وليس من الهين اليسير أن نحدد أثر كل عنصر على حدة تحديدا استقصائيا مضبوطا ونرده الى أصله ، فهذا أمر لا مطمع لأحد فيه ولا ينهض به جيل بأكمله • ولكننا برغم ذلك نستبيح لأنفسنا أن نقول ان العنصر اليونانى كان أوفر هذه العناصر الأجنبية حظا من عناية العرب • فقد أقبل القوم فى نهم شديد على ترجمة منطق أرسطو وفلسفته ، وكانوا — لشدة اكبارهم له — يسمونه « المعلم الأول » • وكان من أبلغ كتبه أثرا فى الثقافة العربية — وبخاصة البلاغة — كتابا الخطابة والشعر ، وقد ترجم الأول حوالى منتصف القرن الثانى أو فى أواخره على أكثر تقدير [١] ، وترجم الثانى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى [٢] ، وللكتابين تلخيص فى كتاب « الشفاء » لابن سينا لعله أكمل صورة لهما فى العربية • وقد تبين من الرجوع الى أصل كتاب الخطابة فى غير العربية — فضلا عن تلخيصه العربى — أن فيه أبحاثا بلاغية مختلفة تسمح لنا بالقول بأن هذا الكتاب كان ذا أثر غير قليل فى نشأة البحث البلاغى وتطوره .

وحديثنا عن تلك الفلسفة اليونانية وأثرها فى البلاغة العربية يمهد للاشارة الى ما كان للفلسفة الاسلامية الخاصة (أعنى أبحاث العقائد) من أثر فعال فى نشأة البحث البلاغى ، اذ كانت حاجتهم شديدة الى الكلام فى اعجاز القرآن ووجهه •

---

(١) انظر « فهرست ابن النديم » ص ٢٤٤ طبعة أوربا .
(٢) انظر « فهرست ابن النديم » ص ٢٦١ طبعة أوربا .

وعلى ذلك نرجح أن البحث البلاغى نشأ فى البيئات الكلامية ، ويصرح بذلك ابن تيمية فى رسالته (الايمان) حين يقول عند كلامه عن اصطلاح المجاز : « والغالب أنه كان من ناحية المتكلمين »[١] .

وقد كان لتلك النشأة السابقة وما بيناه من عوامل فيها الأثر الواضح فى اتساع البحث البلاغى وتطوره وظهور اتجاهات مختلفة فى الدراسة البلاغية ؛ فكانت هناك طريقة المتكلمين ، والى جانبها طريقة أخرى هى طريقة الأدباء . ونحن لا نحتاج فى اثبات وجود هاتين الطريقتين الى أكثر مما صرح به أبو هلال العسكرى فى آخر الفصل الأول من الباب الأول من كتاب الصناعتين اذ يقول : وليس الغرض فى هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وانما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب ، فلهذا لم أطل الكلام فى هذا الفصل »[٢].

(٣)

أصبح البحث البلاغى يتناوشه اذن مدرستان : مدرسة كلامية ، ومدرسة أدبية . فالمدرسة الكلامية تمتاز بالتحديد اللفظى والعناية بالتعريف الصحيح والقاعدة المنضبطة والروح الجدلية ، مع الاقلال من الشواهد ، وعدم العناية باظهار الجمال الفنى فى التراكيب ، وتعتمد على المقاييس الفلسفية والأدلة المنطقية فى الحكم على الكلام بحسنه أو قبحه .

أما المدرسة الأدبية فتمتاز بالاكثار من الشواهد نثرا أو شعرا ، والاقلال من القول فى التعاريف والقواعد والتقاسيم ، والاعتماد فى الحكم الأدبى على الذوق الفنى وعلى حاسة الجمال أكثر من الاعتماد على تصحيح الأقسام وسلامة التدليل المنطقى .

---

(١) انظر رسالة (الايمان)لابن تيمية ص ٣٤ طبعة المطبعة السلفية .
(٢) كتاب « الصناعتين » ص ٨ طبعة الآستانة .

وقد تسايرت المدرستان على اختلاف فى التقارب والتباعد الى أن غلبت أخيرا الروح الكلامية فى البحث البلاغى ؛ وكان لها اليد الطولى فى تحديد دائرته تحديدا ضيقا هو الذى انتهى الينا .

ولعلنا نستطيع أن نقول ان البحث البلاغى قد سار على وفق البحث المنطقى؛ اذ نراهم يعتبرون الجملة فى اصطلاح النحاة نظير القضية فى اصطلاح المناطقة[1] . ونرى أن بحثهم فى المفردات وخصائصها — وهو ما يسمى بعلم المعانى — لا يكاد يزيد عن البحث المنطقى فى المفردات ، وهو أبحاث التصور . وأبحاثهم فى علم البيان — وهى تتناول المركبات ودلالتها — تقابل التصديقات فى المنطق . ويجىء بعد ذلك علم البديع وهو تحسين ثانوى فى البحثين السابقين .

وعلى ذلك يمكننا أن نقول ان الدرس البلاغى قد بدأ ناقصا وانتهى ناقصا . فقد حرمنا أبحاثا بلاغية قيمة نجدها فى بلاغات الأمم الأخرى ، وهى ضرورية للنقد الفنى ، كما هى ضرورية لصناع القول من كتاب وشعراء ... فمن تلك الأبحاث البحث فى الأسلوب واختلافه وأوجه تفاوته ومزايا أنواعه . ومنها البحث الأوسع فيما وراء الاستعارة والكناية من الغرض العام للأديب فى القصيدة أو القطعة النثرية ، وكيف يرسم صورة قولية فنية متصلة الأجزاء متناسبتها ، وكيف يبرز كل جزء من أجزائها . ومنها البحث فى ايجاد المعانى وفى ترتيبها وفيما يناسب كل فن أدبى منها وما لا يناسبه . وكذلك البحث فى فنون القول الأدبى نثرا وشعرا ودرسها فنا فنا لبيان ما به يحسن كل فن وما يجانسه من تشبيهات واستعارات وكنايات .. وغير ذلك من الأبحاث التى نجدها لدى الأمم الأخرى والتى ألمع اليها الجاحظ وابن قتيبة والسجستانى وغيرهم .

(١) انظر « الاقصى القريب فى علم البيان للقاضى التنوخى » ص ٦ .

والحق أننا نجد عند المدرسة الأدبية فى مختلف عصورها اشارات الى بعض تلك الأبحاث ؛ كالذى ساقه قدامة بن جعفر فى « نقد الشعر » من الكلام على نعت الرثاء والمديح والهجاء والوصف والتشبيه ، وكالذى عرض لبعضه ابن الأثير فى « المثل السائر » من بحث فى الرسائل ومقدماتها والخطب وما يتصل بها ، وغير ذلك .

مهما يكن من شىء فلا ريب فى أن البلاغة العربية كانت وثيقة الصلة بالبيئة الفلسفية ، ونعنى بالفلسفة معناها العام أو معناها الخاص ؛ كالفلسفة الاسلامية الكلامية التى تغلب عليها الصلة بالأبحاث الالهية . فنرى البلاغة فى جميع أدوارها قد عاشت فى كنف رجال الفلسفة ؛ فسهل بن هارون حكيم يتعاطى الفلسفة ، والجاحظ كان على رأس فرقة كلامية وقد قرأ كتب الفلاسفة عند الأمم المختلفة ، وقدامة بن جعفر فيلسوف منطقى ، وعبد القاهر الجرجانى متكلم ، والزمخشرى من أشهر رجال المعتزلة ، والسكاكى من المبرزين فى علم الكلام .. وكذلك المتأخرون من طبقة المؤلفين ، كالعضد الايجى (نسبة الى ايج فى فارس) ، والقزوينى والسعد التفتازانى ، والشريف الجرجانى ، والبسطامى ، ليس منهم الا وقد أخذ يحفظ من الفلسفة وعلم الكلام .

(٤)

الدور الفنى

واذا كانت جملة ما ترتد اليه البلاغة أنها نقد ما يصنع من فنون القول أو انشاء تلك الفنون — فلا مراء فى أن ذلك موجود ما وجد قائل وناقد قول . وتلك نحيزة قديمة كانت الصحراء العربية زاخرة بها أيام الجاهلية وبعد أن أشرق نور الاسلام .

ففى أيام الجاهلية كان للقول المتخير من نثر وشعر سوق نافقة تدل على أنهم كانوا فى نهضة أدبية حية . فقد كانوا ينقدون ما يسمعون من شعر ويتخيرون بعضه فيسرى فى الآفاق ، كما نعرف من أخبار الأسواق . وكان

لهؤلاء البُداة فى أيام السلم مجامع وسوامر يتسلون فيها بانشاء القريض وانشاده .. ولا نكاد نتجاوز الحقيقة اذا قلنا ان حكامهم فى المفاخرة والمنافرة كانوا فى جملة الأمر نقادا ، ينصرون فريقا على فريق لبلاغة قول وشدة أسر شعر . وليس ذلك كله الا ضربا من الدرس البلاغى . وكانوا يسوقون الأحكام فى البادية على الطبيعة المشهودة ، محتكمين الى الذوق الفطرى دون منهج ولا أسلوب مرسوم .

ثم أقبل الاسلام فكانت الدعوة الاسلامية درسا بلاغيا قويا ، اذ اعتمدت فى الاقناع والدعاية على أسلوب بسطت به بين يدى القوم أصول الدعوة ومراميها ، فلما أبوا واستكبروا تحدتهم أن يأتوا بمثل كتاب الله الكريم فعجزوا « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . وكان اعتناق العربى للاسلام — على ما يظهر لنا — حكما نقديا أدبيا ، لأنه انما يكون بعد أن يجد فى نفسه صدى قويا لهذا الأسلوب القرآنى الذى تعنو له جباه أساطين البلاغة واللسن المقاويل ، كما حدث فى اسلام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

ثم كانت الحياة الجديدة مجالا واسعا لنقد أدبى أنشط مما كان فى الجاهلية ، فقد زاد فى عوامل التفاخر عامل لا يفاخر قبيلا ولا ينافر شخصا ، وانما يفاخر الجزيرة كلها وينافر الدنيا جميعا ، فالتقى شعراء المشركين ومن ظاهروهم بشعراء النبى صلى الله عليه وسلم . وكان الحكم لهؤلاء أو أولئك بالتفوق حكما أدبيا من وحى الذوق . ونرى صاحب الشريعة عليه السلام يؤيد تلك الناحية الفنية فى النقد الأدبى تأييد تاما حينما يسأل : فيم الجمال ؟ فيقول : فى اللسان ، يريد البيان[1].

وخلف الرسول عليه السلام خلفاء كانوا خطباء مصاقع ونقادا يحسنون الحكم على الشعر.وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه كان أنقد أهل زمانه للشعر

(١) العمدة لابن رشيق ١٦١/١ طبعة مطبعة السعادة .

وأبصرهم به ، وحكمه لزهير بن أبى سلمى معروف . وقد ذكروا أنه كتب الى أبى موسى الأشعرى يقول : مر من قبلك بتعلم الشعر فانه يدل على معانى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب »[1] . وأثر عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أحكام على الشعراء المتقدمين مقرونة بعلل التفضيل وأوجه التقدير .

وهكذا كان عصر الرسول والخلفاء من بعده فيه نوع من الدراسة البلاغية المعتمدة على الذوق الفنى والحس الفطرى . ثم كانت الدولة الاسلامية الواسعة التى رفرف عليها لواء المدنية والحضارة ، فحجبت مظاهر الرفاهة مجال الحس الفطرى ، وباعدت بينه وبين معانيه رويدا رويدا . الا أنهم أرادوا أن يحتفظوا بالتربية القومية والروح العربية ، جاعلين نصب أعينهم قولة عمر السابقة الى عامله أبى موسى الأشعرى ، وهى تدل على أنهم كانوا يعدون الشعر والأنساب والأيام علم العرب ، وكانوا يتداولون دراستها على مثال ما كانت تصنع مدرسة البادية معتمدة على الذوق الفطرى .

وما زالوا كذلك حتى وجدوا أن حَصَر العجمة قد بدأ يزحف الى ألسنة أبنائهم بسبب اختلاطهم بأبناء البلاد المفتوحة ، فأخذوا يستدعون المؤدبين ليحفظوا على الأبناء روح العربية وأدبها ... وهنا نرى فى هؤلاء المؤدبين أول اتجاه مغاير يصيب الدراسة البلاغية الفنية . فقد أخذ أولئك المؤدبون يعملون على تكوين البصيرة النافذة والقدرة على القول البليغ ، ويقاومون فى ذلك عوامل اضعاف الروح العربية معتمدين على ضروب من التلقين والتعليم . وكانوا ينتقدون معانى ما يروونه لتلامذتهم من الشعر نقدا يعتمدون فى جملته كذلك على قواعد الجمال الفطرى واستيحاء الطبيعة . وكانوا يخوضون من غير شك فى معنى الفصاحة والبلاغة ، ويحاولون ايضاح هذه المعانى بأمثلة وشواهد من المروى نثرا ونظما . فكان ذلك تغييرا ما فى منهج الدراسة ، الا

---

(١) المستطرف للأبشيهى ص ٢١٦ طبعة بولاق .

أنه كان تغييراً طفيفاً لا يخرج المدرسة البلاغية عن نزعتها الفنية ،وبخاصة اذا رأينا أن أولئك المؤدبين كانوا من أهل البادية الذين لم تلوث ألسنتهم حصائد العجمة ، أو أشخاصا عمدة علمهم الرواية عن البدو .

وفى هذا الدور نرى دواعى المدنية قد دفعت القوم الى التدوين شيئاً فشيئاً ، فظهرت رسائل تحت عناوين بلاغية مثل « كتاب المعانى » لمؤرج السدوسى ، ثم كتاب آخر اسمه « كتاب الفصاحة » لأبى حاتم السجستانى ، ثم « كتاب البلاغة » للمبرد .

وهنا نجد أننا قد شارفنا دورا جديدا فى حياة البلاغة ، هو الدور العلمى الذى يتميز باتجاهه الجديد فى ضبط موازين النقد ووضع قواعد البلاغة والدنو رويدا رويدا من النزعة العلمية التى لم نكن نراها واضحة فى الدور السابق الذى نعته بالدور الفنى . وقد تحدثنا فى أول الأمر عن هذا الدور العلمى .

(٥)

أشهر رجال البلاغة

والآن نسوق الحديث الموجز عن نفر من رجال البلاغة الباحثين ذوى الآراء الانشائية التى اتسع بها البحث وامتدت أطرافه ، ثم عن الرجال الذين قاموا بنصيبهم فى التدوين والشرح وتهيئة المادة للدراسة ... نسوق ذلك على نظام ما بيناه من أدوار حياة البلاغة ومدارسها (دور تاريخى علمى ودور فنى — مدرسة أدبية ومدرسة كلامية) .

والحق أننا نجد فى أواخر الدور الفنى — وهو الذى سبق الدور التاريخى — رجالا لهم متفرقات فى البلاغة ليست بالكتب المستقلة ، ولكنها على كل حال أبحاث مبتدئة كانت فيما بعد نواة للتأليف المحدد والبحث المستفيض ... فمن هؤلاء :

١ — عبد الله بن المقفع ، وهو كاتب أديب متفلسف ، وله كتب الأدب الكبير ، والأدب الصغير ، وكليلة ودمنة المترجم عن الفارسية ، ويرى بعض المستشرقين أنه من وضعه [١] . توفى ابن المقفع سنة ١٤٢ هـ .

٢ — جعفر بن يحيى البرمكى ، الوزير الأديب ، صاحب التوقيعات ، الذى ينقل له الجاحظ المتفرقات فى بيانه عن الفصاحة والبلاغة ، توفى سنة ١٨٧ هـ

٣ — بشر بن المعتمر صاحب الصحيفة المعروفة فى البلاغة وحدودها ، توفى سنة ٢١٠ هـ [٢] .

٤ — سهل بن هارون الكاتب المتفلسف الملقب (بزرجمهر الاسلام) ، وكان يتولى الهيمنة على خزانة الحكمة للمأمون . توفى سنة ٢٠٦ هـ .

٥ — أبو عثمان الجاحظ صاحب الكتب المشهورة ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

٦ — ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ صاحب طبقات الشعراء وعيون الأخبار وأدب الكاتب وتأويل مشكل القرآن .

٧ — المبرد المتوفى سنة ٢٨٨ هـ صاحب كتاب الكامل وكتاب المقتضب .

هؤلاء هم الأدباء والكتاب الذين وضعوا اللبنات الأولى فى صرح التأليف البلاغى .

ومنذ أوائل القرن الرابع نجد البحث يتخذ شكلا متميزا ، فنستطيع أن نذكر الرجال حسب نظام المدارس الذى أشرنا اليه . وأحب أن أشير الى أننا فى هذا التفريق بين رجال المدرستين ، والحكم لواحد بأنه من رجال المدرسة الأدبية أو الكلامية انما نعتمد فى ذلك على الأكثر الأظهر من حال هؤلاء الرجال ، لأن نزعاتهم فى ذلك الدرس لا تتميز تماما ، بل قد يختلط الأمر فى الكتاب الواحد للرجل الواحد ، أو تظهر له العناية بالناحيتين فى كتابين مختلفين يكون فى أحدهما أجنح الى الناحية الكلامية وفى الآخر أدنى الى الناحية الأدبية .

---

(١) انظر « ابن المقفع » فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) اقرأ هذه الصحيفة فى البيان والتبيين ١/١٠٤ طبعة المطبعة التجارية .

رجال المدرسة الأدبيـة

يذكر الرواة أن أبا عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٦ هـ هو أول من ألف فى البيان كتابا سماه « مجاز القرآن » وتوجـد منه قطعة مخطوطة فى دار الكتب تحت اسم « تفسير غريب القرآن » لأبى عبيـدة . وبالنظر فيها يتبين أن أبا عبيدة توخى فى هذا الكتاب أن يجمع الألفاظ التى أريد بها غير معناها الوضعى . ألا تراه وقد سـئل مرة عن قول الله عز وعلا « طلعها كأنه رءوس الشياطين » فقـال : هو مجاز كقول امرىء القيس « ومسـنونة زرق كأنياب أغوال » . ولذا يعتبر هذا الكتاب ـ فى نظرنا ـ كتاب لغة ، ويعتبره بعضهم كتاب تفسير[1] . وعلى ذلك رأينا أن نسقطه من حسابنا .

أما هؤلاء الذين بدءوا يشيدون صرح البلاغة العربية من غير أن ينزعوا بها بعيدا عن الذوق الأدبى والحس الفنى فهم :

١ - عبد الله بن المعتز الخليفة الشاعر المتوفى سنة ٢٩٦ صاحب « كتاب البديع » .

٢ ـ قدامة بن جعفر المنطقى الرياضى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ والذى يقول فيه ابن النديم « أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء ؛ وممن يشار اليهم فى علم المنطق »[2] صاحب « نقد الشعر » و « نقد النثر » .

٣ ـ أبو أحمد العسكرى اللغوى المحدث أستاذ أبى هلال العسكرى ، وقد توفى سنة ٣٨٢ هـ وله رسالة صغيرة اسمها « التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم » .

٤ ـ أبو هلال العسكرى ؛ الحسن بن عبـد الله بن سـهل المتـوفى سنة ٣٩٥ هـ صاحب كتاب « الصناعتين » المعروف .

(١) يعتبره الدكتور طه حسين كتاب لغة (ذكرى أبى العلاء ص ١١٦) .
(٢) يعتبره الدكتور طه حسين كتاب لغة (ذكرى أبى العلاء ص ١١٦) .

٥ — القاضي الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب المتكلم الأديب المتوفى سنة ٤٠٣ هـ صاحب كتاب « اعجاز القرآن » .

٦ — ابن رشيق القيرواني ، أبو على الحسن الناقد الأديب الكاتب المتوفى سنة ٤٦٣ هـ صاحب كتاب « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » .

٧ — ابن سنان الخفاجي ، أبو بكر محمد عبد الله بن محمد بن سعيد ابن سنان الخفاجى الحلبى الشاعر الأديب المتوفى سنة ٤٦٦ هـ مؤلف كتاب « سر الفصاحة » .

٨ — أبو بكر عبد القاهر الجرجانى النحوى البليغ المتوفى سنة ٤٧١ هـ ، ويعتبر أدق من كتب فى البلاغة من أهل عصره وأسخاهم قلما وأوسعهم بيانا فى كتابيه « دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة » .

٩ — ابن الأثير ، وهو الكاتب ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الموصلى المتوفى سنة ٦٣٧ ، صاحب كتاب « المثل السائر » ، ولعله آخر من نعده من رجال هذه المدرسة ، لأننا لانكاد نجد للطريقة الأدبية فى الدرس أثرا يذكر ، لم تتم الغلبة للمدرسة الكلامية .

رجال المدرسة الكلامية

أشرنا آنفا الى عدم سهولة التمييز بين رجال المدرستين ، والى اختلاط النزعتين فى الأثر الواحد للمؤلف ، واننا لذلك نضطر الى اعتبار بعض رجال المدرسة الأدبية من ذوى الأثر فى المدرسة الكلامية . فنحن نجد قدامة بن جعفر ذا نزعة فلسفية منطقية ظاهرة ، وبخاصة فى كتاب « نقد النثر » اذا صحت نسبته اليه . الا أن الحياة الأدبية الناشئة فى عصره وعدم نضج الدراسة المنطقية اذ ذاك دفعاهم الى تركيز العناية بالناحية الأدبية ، وهذا ما جعلنا نعده من رجالها . وكذلك نرى عبد القاهر أميل الى النزعة الكلامية فى كتابه « دلائل الاعجاز » ، والى الأدبية فى « أسرار البلاغة » . الا أن أسلوبه

الأدبى المسهب ، واعتماده على الحاسة الفنية فى الحكم على النص ، وحديثه المستفيض عن الذوق الأدبى ... كل ذلك وغيره جعلنا نعده من رجال المدرسة الأدبية .

ورأس هذه المدرسة الكلامية وأستاذها البارز هو :

١ ــ السكاكى ، أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر المتوفى سنة ٦٢٦ هـ صاحب كتاب « مفتاح العلوم » . ويذكر ابن خلدون ــ حين يؤرخ للبيان ــ أن السكاكى هو واضع هذا الفن[1] . ولعله محق فى ذلك على اعتبار أنه يؤرخ البيان على الصورة التى كانت متدارسة فى عهده ، اذ كانت المدرسة الأدبية لذلك الحين قد أخلت الميدان تماما . ولنا فى هذا الكتاب حديث مسهب بعض الشىء ، حينما نتكلم عن كتب المدرسة الكلامية . ويقول ياقوت فى السكاكى : انه علامة امام فى العربية والبيان والأدب والعروض والشعر ، متكلم فقيه ، متفنن فى علوم شتى[2] » . وحوالى عصر السكاكى أو بعده بقليل نرى رجالا يمكن أن يكونوا قد أحدثوا شيئا من الأثر فى طريقة تلك المدرسة الكلامية. فنستطيع أن نعدهم مع السكاكى من رجال هذه المدرسة المتميزين بشىء من البروز فيها ، ومن هؤلاء :

٢ ــ الفخر الرازى ، وهو فخر الدين محمد بن عمر المتوفى سنة ٦٠٦ هـ صاحب التفسير المعروف ، وله كتاب « نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز » .

٣ ــ التنوخى : زين الدين أبو عبد الله عمر المتوفى سنة ٦٣٧ هـ وله كتاب « الأقصى القريب » .

٤ ــ يحيى بن حمزة العلوى اليمنى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ صاحب كتاب « الطراز » وهو أوفى كتاب وضع فى البلاغة حتى زمنه .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣١١
(٢) انظر « معجم الادباء ٢٠/٥٨ طبعة دار المامون .

هذا الى أننا نرى فى القرنين السادس والسابع رجالا يعنون بتتبع بعض الفنون البلاغية كالمجاز والبديع فى القرآن خاصة مثل :

٥ ــ عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٠٦ هـ فى كتابه « الايجاز فى بعض أنواع المجاز » .

٦ ــ ابن أبى الاصبع العدوانى المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ مؤلف كتاب « تحرير التحبير فى علم البديع » وكتاب « بديع القرآن » .

أما بعد ذلك ، أى منذ القرن الثامن فلا نرى الا مؤلفين عيالا على من سبقهم . يبسطون ويطوون فى أقوالهم دون زيادة فى الجوهر أو الأصل .

(٦)

اهم كتب البلاغة

والآن نحاول أن نشير ــ فى لمحة موجزة ــ الى أشهر كتب المدرستين . ونحن لا نطمع فى دراسة خاصة للكتاب نبين بها جهد صاحبه ، وتأثره بمن قبله ، وصلته بمن بعده . فذلك درس يحتاج الى زمن كاف وتجرد تام له ، وانما نسوق هنا لمحات خاطفة عن تلك الكتب الكبرى بعد أن نترك المتفرقات التى كانت قبل وضع الكتب . وقد يدفعنا المجال الى أن نبسط القول بعض الشىء فى كتب بالذات لأن المقام يتطلب ذلك .

كتب المدرسة الأدبية

١ ــ كتاب البديع لابن المعتز : ويعتبر دراسة فنية لعناصر الجمال فى الأدب . وقد جمع فيه مؤلفه محاسن الكلام التى ازدان بها كلام الفحول من الجاهليين والاسلاميين ، ووردت فى الكتاب الكريم ، وفى حديث الرسول الكريم ، وكلام الصحابة والتابعين . ولم يكن ابن المعتز يعنى « بالبديع » ما يعنى به البلاغيون المتأخرون الآن من أنه العلم الذى يبحث فى وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه

على مقتضى الحال ؛ ووضوح الدلالة على المعنى المراد ، وانما كان يعنى به سائر فنون البلاغة . ولهذا نراه يخوض فى فصول من « البيان » كالتشبيه ، والكناية ، والتعريض ، وفى فصول من « علم المعانى » كالالتفات ، والاعتراض ، فضلا عن بعض المحسنات البديعية كالتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ؛ والمذهب الكلامى ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدح ، وتجاهل العارف ، والهزل الذى يراد به الجد ، وحسن التضمين ، ولزوم ما لا يلزم ؛ وحسن الابتداء .

والظاهر أن الذى دفعه الى تأليف هذا الكتاب تعصبه لعروبته وانكاره على المحدثين ادعاءهم بأن العناصر الجمالية من صنعهم ، فهو يريد أن يبين للناس أن بشارا وأبا نواس ومسلم بن الوليد وأبا تمام ومن سلك دربهم لم يسبقوا الى تلك الفنون ، ولكنهم أكثروا منها ، فعرفت فى زمانهم بكثرتها . وكانت تصدر عن السابقين عن طبع وسليقة ، لا عن تعمل واسراف ، كما فعل غلاة المحدثين .

٢ ــ نقد الشعر : لقدامة بن جعفر ، وفيه أبحاث متفرقة عن اللفظ والمعنى وفنون القول الأدبى من وصف وتشبيه وهجاء . وفيه بعض أبحاث من الفنون الثلاثة المعروفة ، بعضها باسمه الذى صار اليه أخيرا ، وبعضها باسم آخر كان له فى عصره ، كتسمية الكناية المعروفة لنا الآن بالارداف . والكتاب فيه من الأبحاث البلاغية الفنية ما نحن الآن فى حاجة الى استكماله ، كحديثه عن فنون القول وما به تحسن ، وأمثال ذلك .

٣ ــ نقد النثر : وفى نسبته الى قدامة شك ، وقيمته البلاغية دون كتاب « نقد الشعر » . وفيه أبحاث مقتضبة قليلة الجدوى فى وجوه البيان والعبارة والرمز والاستعارة والتقديم والتأخير والحذف ، وما شابه ذلك . وأبحاثه بعامة تسيطر عليها الروح المنطقية سيطرة أقوى مما فى نقد الشعر .

٤ ــ التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم : لأبى أحمد العسكرى ، وهو رسالة صغيرة اسمها أكبر مما تحتويه ، ففيه خواطر أدبية ولمحات بلاغية لا تقوم بتلك التسمية المهمة .

٥ ــ الصناعتين : لأبى هلال العسكرى ، وفيه أبحاث مسهبة عن البلاغة والفصاحة ، ومتفرقات فى العمل الأدبى وكيف يزاوله الأديب ويتخير له ، وتختلط فيه الفنون البلاغية بطريقة غير متميزة .

وهو يتناولها بنزعة أدبية فنية نقدية . ونراه يسلك سبيل الجاحظ فى الابانة عن موضوع (البلاغة) فى أصل اللغة ، وما يجرى معه من تصرف لفظها ، وذكر حدودها ، وشرح وجوهها ، وضرب الأمثلة الكثيرة فى كل نوع منها ، وتفسير ما جاء عن العلماء فيها . وهو معجب بكتاب « البيان والتبيين » ، ويصرح بأنه قرأه ، ويعترف بأن هذا الكتاب كثير الفوائد جم المنافع ، « الا أن الابانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ومنتشرة فى أثنائه . فهى ضالة بين الأمثلة ، لا توجد الا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير » . ولهذا رأى أبو هلال أن يصنف كتابه هذا « مشتملا على جميع ما يحتاج اليه فى صنعة الكلام نظمه ونثره ، ويستعمل فى محلوله ومعقوده من غير تقصير واخلال ، واسهاب واهذار »[1].

وليس من شك فى أن الغرض الأول من دراسة البلاغة والبيان ــ فى نظر أبى هلال ــ هو اثبات اعجاز القرآن « من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الايجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة »[2].

وهو ينقل كثيرا من كتاب «نقد الشعر» ويذكر اسم مؤلفه قدامة بن جعفر ، وفى مواضع من النقد الشعرى يكاد ينقل الصفحة الكاملة من كتاب « الموشح » للمرزبانى .

٦ ــ اعجاز القرآن : للقاضى الباقلانى ، وقد ألفه صاحبه ليرد الشبه التى يريد بها أعداء الدين الغض من شأن الآية الكبرى للنبوة وهى كتاب الله الكريم .

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٥ طبعة الآستانة .

(٢) كتاب الصناعتين ص ١ .

وقد عرض المؤلف لمسألة الاعجاز وشرحها وبيان وجوه الاختلاف فيها • وهو بذكر جملة من وجوه الاعجاز عند بعض العلماء ، كتضمنه الاخبار عن الغيوب التى لا يقدر على علمها البشر،وما كان معلوما من حال النبى صلى الله عليه وسلم وهو أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ ، وكذلك ما كان معروفا من حاله أنه عليه السلام لم يكن يعرف شيئا من كتب الأولين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ••• ومن وجوه الاعجاز أن القرآن بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة الى الحد الذى يعجز الناس عن الاتيان بآية من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا • كما تكلم الباقلانى عن الشعر ومزاياه حين تعرض لنفى أن يكون الكتاب الكريم شعرا •

٧ ــ العمدة : لابن رشيق القيروانى ، وهذا الكتاب ينتظم أبحاثا فى النقد والأدب ،ولكنه يعتمد على النقل والرواية أكثر مما يعتمد على قريحة المؤلف وآرائه الخاصة • وابن رشيق يعترف أنه « جمع أحسن ما قاله كل واحد منهم فى كتابه ليكون العمدة فى محاسن الشعر وآدابه » [1] ومع ذلك يقول « وعولت فى أكثره على قريحة نفسى ونتيجة خاطرى » • وقد تصدى فيه لأبحاث بلاغية ، مثل باب البلاغة وباب الايجاز وباب البيان وباب الاستعارة وباب التشبيه والكناية والرمز وغيرذلك.ولكنه يعتمد أكثر مايعتمد على سرد أقوال السابقين . وتناول كذلك فنونا كثيرة من البديع ، واستحدث بعضها ، وقد أحسن فى ذلك أيما احسان • وصدق ابن خلدون حين قال : وانما اختص بأهل المغرب من أصنافه (أى علم البيان) «علم البديع» خاصة ، وجعلوه من جملة علوم الآداب الشعرية ، وفرعوا له ألقابا وعددوا أبوابا ونوعوا أنواعا ... » ، قال : وممن ألف فى البديع من أهل افريقية ابن رشيق ،وكتاب العمدة له مشهور ، وجرى كثير من أهل افريقية والأندلس على منحاه »[2] • ويمتاز هذا الكتاب بالاكثار من

---

(١) كتاب العمدة ٢/١ طبع مطبعة السعادة .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨١ طبعة بيروت .

الاستشهاد والتمثيل ، والنزوع الى النقد الأدبى ، والعناية بالشعر دونَ النثر • والمؤلف يشير كثيرا الى نقد قدامة وينقل عنه •

٨ ــ سر الفصاحة : لابن سنان الخفاجى : وهــذا الكتــاب من خير الكتب وأنفســـها • وهو نوع من البحث المسهب المنظم الدقيق فى العربية وأصولها ، ودراسة منظمة لعناصر الجمال الأدبى ، وسوق آراء سديدة فى النقد وفنون الأدب والبلاغة تنم عن عقل عميق ومحصول ضخم فى العلوم العربية • وقد قدم لنا أبحاثا قيمة فى الفصاحة وحقيقتها ، وفى الصورة وجزئياتها ومكوناتها وكلياتها ، مع الالمام بكلام الفلاسفة والعلماء لعهده • وبحث فى الحرف المفــرد ومخارجه وتناسبها وتبــاعدها ، ثم فى الكلمة المركبة وحسن جرســها ، واختيار الكاتب لكلماته وما يلاحظ فى ذلك من شروط ، مع ايراد الأمثلة الكثــيرة من ذلــك لوجوه الشعراء ، ومن طريف أبحاثه التعرض لبيان كلمات تجرى فى الهجاء وتقبح فى غيره ، وأخـــرى تستحسن فى المدح وهكذا . كما تنــاول الجملة وتركيبها من الكلمات •

وقد يكون هذا الكتاب ــ فيما يبدو لنا ــ أصلا لمــا تولاه بالبيان العالم الأديب المرحوم مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « اعجاز القرآن » ، وفيما كتبه من أبحاث حول الفلسفة الصوتية فى القرآن •

٩ ــ دلائل الاعجاز : لعبد القاهر الجرجانى ، وهو الكتاب الذى غلبت فيه النزعة الكلامية ، وكان موضوع العناية فيه تلك المسألة الكلامية الكبرى التى شغلت أذهان المسلمين ردحا طويلا من الزمان ، وهى مسألة اعجاز القرآن • وقد بسط عبد القاهر رأيه فيها وهو أن الاعجاز مرجعه النظم • وهذه الفكرة نرى أصلها فى كتب سابقيه من المتكلمين ، ولكن عبد القــاهر تناولها بالشرح المسهب ، وأخذ يعيد فيها ، ولا يتركها الا ليعود اليها حتى استأثرت بالكتاب كله • وفى أثناء ذلك خاض فى أبحاث بلاغية ، كالتقديم والتأخير والتنكير والتعريف

والفصل والوصل والايجاز والذكر والحذف ، وكالمجاز والتمثيل والاستعارة والكناية ، وكالسجع والتجنيس ، وغير ذلك من الأبواب البلاغية الكثيرة .

١٠ — أسرار البلاغة : للمؤلف نفسه ، وهذا الكتاب تغلب فيه نزعة عبد القاهر الفنية ، ولايكاد يعرض لمسألة الاعجاز ، بل يقل فيه استشهاده بالقرآن الكريم الى حد يستحق التعليل . وقد عنى بفنون الحسن فى القول ، وبم تكون . وفى هذا السبيل يتناول أبحاثا بديعية وبيانية غير مرتبة ولا مبوبة ، فتكلم فى التجنيس والسجع والاستعارة والمجاز والحقيقة والتشبيه وما شابه ذلك من الأبحاث .

وعبد القاهر فى هذا الكتاب يتجرد للدفاع عن المعنى دفاعا حارا ، ويرى أن مقاييس الحكم على النص الأدبى ترجع كلها الى المعنى . وهو بذلك يرد الرأى الذى نادى به الجاحظ وهو أن المعانى مطروحة فى الطريق ، يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى ، « وانما الشأن فى اقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفى صحة الطبع وجودة السبك . فانما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير »[1].

ولهذا نرى عبد القاهر يفسر كل حسن لفظى تفسيرا معنويا .

وكتب عبد القاهر المبسوطة المتميزة العبارة — وبخاصة أسرار البلاغة — كانت — مع نزعتها الأدبية — دعامة كبرى للمدرسة الكلامية فيما تصدت له من تبويب وتحديد وتقسيم ، كما صرح رجالها أنفسهم بذلك كالسكاكى فى المفتاح والسعد التفتازانى فى شرحه المطول للتلخيص

١١ — المثل السائر : لابن الأثير . وقد جعل فيه مؤلفه الصناعة الأدبية الانشائية أساس البحث . وهو كاتب أديب ، وكان من كتاب الديوان الذى كان يرأسه القاضى الفاضل زمن صلاح الدين . وأحكامه النقدية مدعومة بتجاربه وملاحظاته . وهو بذلك قد أحيا روح الدراسة الأدبية وأنعش مدرستها فى ذاك

(١) انظر كتاب الحيوان للجاحظ ٢/٤٠ .

العصر المتأخر انعاشا يجعل كتابه هذا من المراجع الصالحة لمن يريد احياء رسوم تلك المدرسة . وقد تناول أكثر الفنون البلاغية على أساس جديد نوعا ما فى التقسيم ، اذ أفرد الصناعة اللفظية فى جانب ، والمعنوية فى جانب آخر . وقد بنى كتابه على مقدمة ومقالتين ، فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ، والمقالتان تشتملان على فروع هذا العلم ، فالأولى فى الصناعة اللفظية ، والثانية فى الصناعة المعنوية .

وأول ما يبد هنا فى هذا الكتاب أننا نرى المؤلف معتدا بنفسه مزهوا بعلمه ، ولهذا نجده ينتقص غيره من الباحثين فى البلاغة ، ويعتقد أن كتابه هذا « بديع فى اغرابه وليس له صاحب فى الكتب »[1].

وقد أثارت شخصية ابن الأثير وشدة عجبه بنفسه ضجة كبيرة حول كتابه هذا ، فتناوله بالنقد معاصروه ، مثل ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٥ هـ صاحب « شرح نهج البلاغة » ، فقد ألف كتابا سماه « الفلك الدائر على المثل السائر » تتبع فيه سقطات ابن الأثير . ووضع أحد أدباء القرن الثامن كتابا سماه « نصرة الثائر على المثل السائر » ، وهو الشاعر الأديب صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ؛ وقد تناول فيه المؤاخذات التى تركها ابن أبى الحديد .

١٢ — الجامع الكبير فى صناعة المنظوم والمنثور : لابن الأثير نفسه ، وهو على منوال المثل السائر،بل ان فيه أبحاثا توجد بنصها فيه مما يستحق الملاحظة، وان كان قد زاد فيه فصولا كثيرة ، مثل عنايته باللفظة المفردة التى كانت موضع دراسة ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة ؛ وفيه أبحاث أخرى طريفة .

وهذا الكتاب مع صنوه المثل السائر يعتبران صورة طيبة من النقد المعتمد على ممارسة صاحبه وملاحظاته الشخصية . وبهما ينتهى حديثنا فى كتب المدرسة الأدبية ، حيث تربعت المدرسة الكلامية على عرش البحث البلاغى كما ذكرنا بظهور كتاب « مفتاح العلوم » .

---

(١) انظر المثل السائر ص ٢ .

كتب المدرسة الكلامية

مفتاح العلوم للسكاكى : وهو أهم كتب هذه المدرسة وأخلقها بالدرس والتناول ، بل اننا نجاوز الحق اذا قلنا ان هذا الكتاب صار عند الأجيال الخالفة محور الدراسة البلاغية ومرجعها . ولهذا سنقصر حديثنا عليه من كتب تلك المدرسة ، لأنه أصبح قطب الرحى الذى دار حوله التأليف البلاغى بعده .

وقد عالج السكاكى البيان فى هذا الكتاب بعقلية أصح ما توصف به أنها ليست بيانيه . فقد أصبحت البلاغة قواعد جافة تحفظ وقلما يقاس عليها ، وفقدت قدرتها على تذوق البلاغة وتكوين البلغاء والنقاد .

وحسبنا دليلا على ذلك أن السكاكى درس البيان فى هذا الكتاب بالروح التى درس بها فيه علم النحو ، وعلم الصرف ، وعلم العروض والقوافى ، وعلم الاستدلال (وهو المنطق) . وهذا ما لم يفعله أحد من الذين سبقوه الى الكتابة فى علم البيان ؛ لا لأنهم كانوا يجهلون تلك العلوم التى أحصاها السكاكى ، فربما كان فيهم من هو أعلم بها منه . ولكنهم نظروا الى فن (البيان) فألفوه علماً جمالياً يبتعد مجاله عن مجال تلك العلوم التى يبحث بعضها فى صحة اللفظ ، وبعضها فى صحة التركيب ، وبعضها فى صحة الوزن والقافية ، وبعضها فى صحة التفكير . بخلاف البيان الذى يبحث فى شىء وراء هذه الصحة هو دراسة الأسباب والعوامل المؤدية الى المتعة الفنية واحداث التأثير فى نفس قارىء الأدب وسامعه .

وقد قسم السكاكى كتابه الى ثلاثة أقسام : الأول فى الصرف ، والثانى فى النحو ، والثالث فى البلاغة . وهذا القسم الأخير جعله علمين ، هما علم المعانى وعلم البيان ، وجعل علم البديع تابعاً لهما . وقد أضاف الى كل قسم من هذه الأقسام مايكمله ؛ فتمم علم الصرف بعلم الاشتقاق ، واعتبر علمى المعانى والبيان مكملين لعلم النحو ، وأكمل المعانى — فيما رأى — بالكلام فى الاستدلال .

وتحدث عما يتم به الغرض من علم المعانى وعلم البيان ، وهو الكلام فى الشعر ، وبذلك اضطر الى البحث فى العروض والقوافى[1].

والحق أن السكاكى قد أفسد البلاغة العربية بهذا التعقيد الذى مجده به ابن خلدون . فقد حول البيان — وهو فن الذوق المطبوع — الى أبحاث وثيقة الاتصال بالمنطق ، وبذلك أدخل أساليب البحث المنطقى فى دراسة الأساليب البيانية الأدبية . وهو يصرح فى غير موضع بحاجة علم البيان الى علم الاستدلال (المنطق) . وهذا أمر يدعو الى العجب ، لأن العربى فى جزيرته كان يصوغ المعانى الرائعة ويرسل البيان الرفيع الذى كان موضع اعجاب خالفيه من غير أن يلم بعلم الاستدلال الذى يجعله السكاكى أساساً من أسس البيان ، ومن غير أن يعرف بلاغة السكاكى أيضا . فلما أفضى الأمر الى معرفتهما والوقوف عليهما غاضت تلك الينابيع الفياضة الحرة .

وقد صار كتاب المفتاح مرجع البلاغيين الأكبر فى دور الجمود والتوقف الذى امتد الى قريب من عصرنا .

ولسنا نعرف السحر العجيب الذى فتن العلماء بكتاب السكاكى ، فجعلهم ينسون أنفسهم وينكرون ملكاتهم ليسيروا فى ركاب السكاكى ، ويعتبروا كتابه الغاية التى يبتغونها . فقد اقتصروا على شرحه وتلخيصه فى متن ، ثم شرح التلخيص عدة شروح ، ثم وضعت حواش مختلفة على الشروح . ولعل أشهر هؤلاء العلماء بدر الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ هـ ، وقد اختصر المفتاح فى كتاب سماه « المصباح فى اختصار المفتاح » ؛ والخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ الذى اختصره فى كتاب سماه « تلخيص المفتاح » طبقت شهرته الخافقين ، وعنى بشرحه الجم الغفير من العلماء . وصنع قطب الدين الشيرازى المتوفى سنة ٧١٠ هـ كتاباً سماه « مفتاح المفتاح » ؛ وشرحه ابن مظفر شمس الدين الخطيبى المتوفى سنة ٧٤٥هـ فى كتاب سماه «شرح المفتاح» . واختصره عضد الدين

---

(١) انظر « مفتاح العلوم » ص ٣ طبعة المطبعة الأدبية .

الايجى الشيرازى المتوفى سنة ٧٥٦ هـ فى كتاب اسمه « الفوائد الغياثية فى علوم المعانى والبيان والبديع » .. وغيرهم .. وغيرهم من العلماء الذين عنوا بتلخيص المفتاح وشرحه .

بيد أن أحد هذه الشروح والتلخيصات حظى بعناية علمـاء البلاغة ، وهو « تلخيص المفتـاح » للخطيب القزوينى ؛ فقد شرحه المصـنف فى كتاب سماه « ايضاح التلخيص » ، وأضاف اليه زيادات أخرى من كتابى عبد القاهر «دلائل الاعجاز » و « أسرار البـلاغة » . ووضع فخر الدين الرازى شرحاً لأبيـات الايضاح .

ومن أشهر شراح التلخيص مظفر الخطيبى وله « مفتاح تلخيص المفتاح » . وبهاء الدين السبكى (٧٧٣ هـ) وله « عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح » وناظر الجيش (٧٧٨ هـ) وسمى شرحه « شرح تلخيص القزوينى » ؛ وسعد الدين التفتازانى (٧٩٢ هـ) وله شرحان : الشرح الكبير والشرح الصغير للتلخيص ... وغيرهم كثيرون .

وندع الآن الذكر التفصيلى لهذه الشروح لنشير الى ظاهرة جديرة بالذكر ؛ هى نظم المتون البلاغية التى بدأت فى القرن التاسع على الأرجح . ولعل أقدم ما نظم فى البلاغة منظومة ابن الشحنة المتوفى سنة ٨١٥ هـ فى علوم البلاغة الثلاثة ولعلها أقدم المنظومات البـلاغية . ومن أشهر المنظومات « عقود الجمان فى علم المعانى والبيان » للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ؛ وكذلك « الجوهر المكنون فى الثلاثة الفنون » للأخضرى من رجال القرن العـاشر ، وعليه شرح للدمنهورى المتوفى سـنة ١٠٩٢ ؛ وحاشية للشيخ مخلوف المنياوى من علماء القرن الثالث عشر . وهناك منظومة الهذلى ، وملحة البيان لزين المرصفى المتوفى سنة ١٣٠١ وغير ذلك من المنظومات .

وهناك ظاهرة أخرى بلاغية أدبية هى نظم القصائد المعروفة « بالبديعيات » فى مدح الرسول عليه السلام ، كل بيت منها يشتمل على لون من البديع ؛ مثل بديعية ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ هـ وشرحها معروف باسم خزانة الأدب ؛ وبديعية السيوطى ، وبديعية الايبارى ، وبديعية صفى الدين الحلى ، وبديعية النابلسى وغيرها .